نحو تجديد الفكر القومي وعصرنة الرؤية في الدولة والأمة والعولمة

العرب أمة قاتلت وقاومت ودنا عصر نهوضها...فهل تنهض؟؟

بقلم الدكتور: ميخائيل عوض

كاتب وباحث في علوم المستقبل

yaragroup@hotmail.com

بيروت ١٣-١١-٢٠١٨

مقدمة:

في رواية الحياة البشرية، وتطورها لبلوغها ما هي عليه اليوم، وعلى رغم اتساع واختلاف الجغرافيا، وتنوع المناخ، وتباين قيم الشعوب ولغاتها وخاصياتها المميزة، وأسباب ودوافع تشكل الوحدات الاجتماعية وبعضها نشأ وارتقى بلا تواصل مع أخريات، إلا أنها تقدم نمطاً متقارباً، وتكاد تكون مساراتها منسجمة ومتكاملة حيث لا خلافات جوهرية بين قارة وأخرى وجغرافيا وأخرى مختلفة عنها...

فالمؤمنون، وأتباع الأديان السماوية، يحق لهم القول؛ إنها مشيئة الخالق في خلقه، وإرداته، تتجسد كما في القطب الجنوبي كذلك في الشمالي وما بينهما، من غرب وشرق وعمق ووسط...

والطبيعيون، والماديون، والمتشككون، كما الباحثون في العلوم والساعون لعلوم الإنسان ومحاولات معرفة واكتشاف خاصياته وكيانه المميز، يرون في الإنسان، ككائن حي مكتمل ومميز عن سواه، بصفته جوهر وهدف الوجود، عناصرَ وصفاتٍ وخواصاً تجعل ممارسته للحياة بأشكالها وأنماطها المختلفة قابضاً على آليات التطور فتبدو وتتبدى تجاربه ومنتجاتهمتساوقه في نمط مشترك أين كان وحل بما في ذلك اشكال وأنماط تشكل الجماعات والهويات، ولو فصلت بينها الأزمنة والمسافات...

ومن كل المشارب، يتفق الباحثون، والمؤرخون، والجيولوجيون، والبيولجيون، والجيوبوليتيكون، والأنثروبيولجيون وامثالهم على أنماط لما تشكلت عليه الجماعات في أزمنتها وارتقت لتستقر اليوم على ثلاثة نماذج كبرى، لا تختصر نماذج متنوعة في بواطنها:

أولاً: أمم عريقة:

تشكلت بهدوء وتراكم، وعبر أزمنة مديدة وبشروط وظروف تبدلت وانقلبت وتغيرت أحوالها، فامتلكت عناصر قوتها وخاصياتها واستغرقت أزمنتها فتميزت عن غيرها من الأمم والجماعات البشرية ومثالها الأمم الأوروبية التي نضجت عناصرها واكتملت شروطها وأسباب تشكلها في إتمامها وإنجازها لوحداتها القومية" دولتها الوطنية" وترسخت واستقرت في دولة الأمة، وبعد أن تحررت كل أمه على حدةٍ، وتوحدت، وأكملت هويتها ارتقت إلى السعي لتشكيل اتحادات ما فوق قومية وأممية...

وعلى نموذجها وربما يفيض عنها لجهة أسباب التشكل، وعناصرها، وآليات التطور، وامتلاك مواصفات وشروط الأمة توفرت لسواها ولم تتمكن.. ونموذجها القاطع الأمة العربية كاملة المواصفات وشروط التشكل ومالكة لكل العناصر المميزة وخاصياتها، وإلى حد يقاربها الأمة الإيرانية والقومية الكردية وأخريات، وحرمت من أن تتحول الى قوة نموذج كما صار مع أوروبا خلال

القرون التي أعقبت حروبها الدينية التدميرية، والإفنائية، فاهتدت إلى العلمنة "**فصل الدين عن الدولة، والكف عن تشغيل الآلهة في خدمة البشر**" وتشكيل الوحدات القومية، بديلاً عن الوحدات القاصرة الجزئية المحتجزة عند تحقيق مصالح الفئة المالكة والحاكمة" الاقطاعية والنظم البطريركية، والقبلية والعشائرية – والهويات ما قبل الصناعة "فشكلت معاهدة وستفالية، نقطة التحول والإرتكاز التي أعلت من شأن القومية فالأمة، فدولة الأمة، وحقوق المواطنة والمساواة، والحريات الشخصية، وأطلقت مفاهيمها وتوصيفاتها، وقالت في أسباب نشوء القوميات والأمم وعناصرها الواجب توفرها...

بيد أن النموذج الأوروبي السائد، والمقلد، تجاهل وجود حقائق مادية، وعناصر لتشكل وحدات اجتماعية قومية وتتخذ صفة الأمم الكاملة المواصفات، ولو لم تحقق هويتها وشخصيتها ومكانتها في دولتها "دولة الأمة" ولم تحقق نفسها لأسباب في تخلفها، وفي تخلف نخبها وتبعيتها أو لأسباب في دوافع وحروب الهيمنة والتقسيم والاستعمار التي مارستها الأمم الأوروبية فيما بينها وإزاء الشعوب والأمم لحرمانها من الكمال في سياق التطور التاريخي وبلوغها حقبة الأمة المكتملة بدولتها الوطنية...

ثانيا: أمم تجري محاولة تصنيعها، وتنعطب لأسباب تاريخية وعملانيه .

أمثلتها ثلاث:

١- **الولايات المتحدة الأمريكية**، التي تشكلت بفعل فاعل، وبإردةٍ مسبقة التصميم، وبما يحقق مصالح الشركات "الأوروبية (الملوك والأمراء والآباطرة) أولاً، ثم تحولت لتعبر عن مصالح الرأسمالية في طورها العولمي" وعلى نموذجها، فاتخذت صفة النظام" السيستم" وجاء دستورها وقوانينها الناظمة وثقافتها، ومنتجاتها، وجل آليات وحدتها وأنماط حياتها، على شاكلة الشركة المساهمة المجتمعة من شركات محدودة المسؤولية أو التضامنية فتتعايش الجماعة الكبرى على قيم المصالح والمنافع، وتركض خلف الفرص" أرض الذهب– الأرض الموعودة" فتنشأ دولة على حساب أصحاب الأرض، وتقوم على إبادتهم، واستقدام " العبيد" الأفارقة ببواخر المواشي وتقتل منهم الملايين إضافة إلى إبادة ملايين من الهنود المواطنين الأصلين كان تعدادهم آنذاك يساوي ويفيض عن ٢٠٪ من عدد سكان الكرة الأرضية...

إن فهم آليات محاولات تصنيع الأمة الأمريكية، بالقوة القهرية، وبالإبادة، وبفرض مصالح القوى والشركات النافذة، وبالقوة القسرية، يفسر لنا كيف أن الولايات المتحدة الأمريكية تشكلت جماعة متوحشة في علاقاتها بين مكوناتها، وفي قيمها، وعلومها، وفي علاقتها بالشعوب والأمم والقارات الأخرى و مازالت، فمن شب على شيء شاب عليه، ومن عاش على قتل الآخرين لا يعيش الا بالقتل والإبادة" حروب أمريكا ومشروعها لقرن أمريكي يقوم على إبادة الأمم بذريعة بنائها وتحضيرها"...إيمانويل فاليرشتاين..

وقصدها أن تبني الأمم على شاكلتها وقيمها وبما يخدم مصالح الشركات المتعددة الجنسية" بما في ذلك فلسفتها لنهاية التاريخ، وحروب الحضارات، وسعيها لتفتيت الشعوب والأمم والأقوام وإعادة نظمها على طبائعها كجماعات متعايشة في خدمة الرأسمال وعجلته في الإنتاج والتسويق" فتحاول قسر الأزمنة وتطويع التاريخ والواقع في خدمة ديمومتها كنموذج" فتحول العالمية التي هي مسار إنساني متقاطر الحلقات إلى عولمة بمعنى الأمركة المتوحشة والمتعجرفة"..

١- **الكيان الصهيوني:** وكل المعطيات، والوقائع، والأبحاث، والدراسات، تفيد بأنها محاولة قسرية لبناء دولة صنيعة وتمكينها من أمة "دولة دينية بعد أن كانت استطيانية احتلالية ويتهددها الفشل والانهيار" بالقوة القهرية، وبالاغتصاب والإبادة، والتطويع، وبوظيفة لخدمة مصالح الغرب وشركاته، وبقائه مهمينا –البقاء المشروط بإعاقة اكتمال تشكل العرب في دولتهم الوطنية كدولة الأمة العريقة والكاملة المواصفات التي إن نهضت تغير في العالم وتقلب التوازنات والقيم وعناصر القوة رأساً على عقب كدأبها

في التواريخ المنصرمة، وحيث تسنى لها أن تكون فيكون الإقليم وأممه، وتصير الإمبراطوريات والأديان والعلوم الإنسانية والقيم والأخلاق على العكس تماما مما أنتجته الأمم المحاول تصنيعها. فأمريكا وإسرائيل تقدمتا في العلوم التقنية والصناعية، والإنتاجية وثوراتها وتخلفت وتتخلف في العلوم الإنسانية والقيمية وفي نظم الحياة البشرية وقواعدها وحدودها وحقوقها وبالأصل منها قيمة الإنسان الفرد" غاية الوجود وسر الحياة" وحقوقه وتلبية حاجاته المادية والروحية ...

٢- **القطريات العربية:** وفيها لا يختلف مؤرخ، أو باحث أو عاقل، ولا تخطئها أبدا الوثائق والمعطيات التاريخية والوقائع الجارية، من أنها محاولات قسرية وقهرية، لتجزئة الجغرافيا، وفصل عرى وحدة الجماعة البشرية المنتمية إلى زمن وقيم وعلاقات وأصول ثابته كانت بين الأسباب الجوهرية لتشكل القوميات والأمم ما قبل وحدتها وامتلاكها لدولتها الوطنية... وقد ابتلتها القوى الإستعمارية بثلاثيتها المدمرة: سايكس بيكو- وعد بلفور- والتبني البريطاني للاسرتين الوهابية والسعودية....

وتجري المحاولات المحمومة، لتفصيل وابتداع وتصنيع أمم، في قطريات، قاصرة، وعاجزة، أجيرة، ليس من شروط أبداً لتمكنها وتحولها الى أمم أو أقوام قادرة، وقد حسم الزمن مساراتها، وبسبب افتقاد قطريات سايكس بيكو، وملاحقه لأي مبررات أو شروط أو إمكانات أو قوى حماية وإسناد، وبصفتها وحدات قسرية قهرية فقد انفجرت النظم والجغرافيا وأزيلت الحدود بقوة الحاجات التاريخية، وبدأ إنهاء سايكس بيكو وجغرافيته ودساتيره من ذات القوى التي ولدتها وجاء تدخل دول وإمارات الخليج السافر والمباشر في التمويل، والتسليح والإعداد، وفي العناصر والجيوش والطائرات و"بالخبراء" في البحرين اولاً، وبأداة درع الجزيرة، ثم في ليبيا، وبعدها في سورية وقبلها في العراق وفي اليمن، والدور المتكامل مع الكيان الصهيوني والعدوانية الامريكية الأوروبية وجيوشها وقواعدها وخبرائها...لتقطع بالإفادة؛ بأن ذات القوة التي أنشأت دويلات صنيعة وظيفية، وحاولت أن تجعل منها أمماً وقوميات مصنعة قد اضطرت لكسرها ومجاوزة الحدود والدساتير بالقوة القهرية، فأسقطت دساتيرها ونظمها... وبكل حال فقد انفجرت الجغرافيا على نفسها ولم يعد من قدرة على استعادة ما كان، فالماضي لايعود والميت لا يقوم، والجديد يتولد في المخاضات ومن رحم المعاناة...

هذه هي الحقيقة الجارية اليوم، فلا التجديد لحدود ولجغرافيا ولنظم سايكس بيكو ممكن، ولا إعادة تعويمه تتوفر لها القوة والأسباب والمصالح الحافزة، ولا إشاعة الفوضى الهدامة" الخلاقة" باتت ممكنة، كما اندثرت في مشرق العرب مؤامرة تقسيم المقسم، وتفتيت المفتت، ليصير وليسود منطق الأزمنة وحقائق الجغرافيا والتاريخ ويستأنف مساراته لفرض البدائل غير الممكن أن تصير إلا بتكبير الجغرافيا وتغيير جدي في نظم العرب وفي الإقليم كما هو جار في العالم وما يشهده من تغييرات جوهرية انقلابية في النظام العالمي بفعل مقاومة العرب ومن بوابة ومسارح حروبهم التي اشتقت طريقها وعصت على القوة وكسرت مسارات الأزمنة وجبت فرص الأمم والجغرافيا التي جرت محاولات تصنيعها" كما هي الحال في أزمة أمريكا، وانقلابها على العولمة، ومأزق الكيان الصهيوني وأزمته التكوينية وهو يعيش أيامه العادية المعدودة كما أفاد رئيس وزراء الكيان الصهيوني في حرب تموز " أولمرت" وكما يجمع المؤرخون الصهاينة الجدد" وكما هي أفادات الوقائع المعاشة والجارية والتي تقطع بتاكيد عجز إسرائيل في غزة وفي لبنان وبعد مرحلة ال "**اس ٣٠٠** " في سورية وقد انقلبت التوازنات وعناصر القوة ...

ثالثاً: الدول الأمم المتعددة الأقوام والإثنيات: وأمثلتها المعاشة؛ الصين- الهند- دول جنوب شرق آسيا، روسيا، ومن قبلها الإمبراطوريات العربية والإسلامية من الأموية إلى العباسيه وآخرها العثمانية، وتلك وهذه دول شهد لها التاريخ بعظمتها وبما أنتجته للبشرية من علوم وأديان وقيم واحترام للإنسان ومكانته، وما زالت تنتج جديدها وبدأت تتحول كفة التاريخ لصالحها مرة ثانية قاطعة على أوروبا التي نشأت على القتل والتدمير وولدت أمريكا وأخواتها وحاولت رأسماليتها الهمجية والمتوحشة أن تبني

أمماً قاصرة وظيفية وتصنيعها على قياس مصالحها، لكن التاريخ والجغرافيا والقيم الإنسانية وحاجات الإنسان تنفي إمكانيتها وتضعها أمام حتفها المؤكد وبالمدى الزمني غير البعيد ...
وتلك الإمبراطوريات وهذه الدول القائمة والمتحولة بقوة حقائق ومسارات الأزمنة والحاجات وبدفع من العوامل الثابتة في تشكيل الأمم والحضارات، تتقدم بتؤدة وتنتظم في بنيتها جماعاتٍ وأدياناً، وقوميات، وجغرافيا، وثقافات، على درجة عالية من التباين والإختلافات ومع كل ذلك تتحد، ومستقرة، وتعود مسيرتها قاطرة للشعوب والقارات والأمم، ولم تفتتها الإثنيات، والتشكيلات الإجتماعية ما قبل الصناعية والتقانية، ولا أفلحت محاولات الغرب الإستعمارية لتقسيمها وإعادة تصنيعها أمماً ودولاً وظيفية...

كل هذا في واقع معاش، ومؤكد بأدلته التي لا تعد ولا تحصى وبما يطابق عملياً وتطورياً منطق ورواية الحياة البشرية على الكوكب....

عودٌ إلى بدء : ما العناصر والأسباب والشروط المكونة للأمة العريقة:

في تعريف الهوية: الهوية لغوياً مشتقة من كلمة هو، وهو برغم تماثله مع الآخر، إلا أن له خاصيات وصفات مميزة، لا تتوفر بالآخر." نقصد الآخر المولود، وليس المستنسخ.."...

يكتسب الفرد هويته الخاصة، من تمايزه عن الآخر، كل آخر، وتصير الهوية الجمعية تفاعلاً" ليس اجتماعاً عشوائياً أو اصطفافاً للهويات الفردية بصورة آلية أو تراكمية أو عبر هندسة حسابية " للهويات الفردية فتتحد في هوية جمعية، تميز الجماعة الإنسانية عن الأخريات...." البعض يرجح أنها متعارضة ومتصادمة، والواقع والعلوم الإنسانية تؤكد تفاعل الجماعات الخلاق والإبداعي لإنتاج الحاجات المتماثلة والمشتركة..."

فالتفاعل الخلاق بين الأفراد، هو تعبير عن بنية ونمط، وفطرة، فالإنسان الفرد مفطور أن يكون في الجماعة ينتمي إليها، وتنظم شروط حياته وتؤمن قدرته على العيش وتلبى حاجاته في انخراطه بالجماعة، والجماعية شرط وميزة للإنسان تفرقه عن الجماعات غير البشرية الأخرى، برغم أنها ايضا تعمل كجماعة منتظمة لتعيش وتوفر حاجاتها وأسباب ديمومتها...

الإنسان الفرد بطبيعته اجتماعياً متفاعلاً، ولاستمرار حياته يصير منخرطاً بالجماعة لتأمين شروط حياته المادية، وبقائه، وتطوره، وتختصر العناصر المتسببة بتشكيل الجماعات وارتقائها منذ بدء الخليقة على النحو الاتي:

- الأفراد المجتمعون في جغرافيا واحدة متحدون في مواجهة شرور الطبيعة وبطش الحيوانات ولتأمين حاجاتهم، فبلا جغرافيا لا يمكن بقاؤهم وتفاعلهم– لهذا تعتبر الجغرافيا شرطاً أولياً حاكماً في تشكل الجماعات واكتساب الهوية الجمعية–
- والأفراد الذين يعيشون في جغرافيا واحدة متصلة تتوفر فيها الأسباب المادية لتأمين الحاجات، تخاطبوا" بإلهام إلهي– أو بقوة الحاجة– وتطور العقل وآليات التفكير والذاكرة والنتاجات الذهنية" وصاغوا لساناً واحداً وطرائق للتفاهم والتفاعل" الأصوات والإشارات، ثم الحفر على الصخر، ثم امتلاك الأدوات، ثم الألسنية، فاللغات" فاللغة أصل في تشكل وتطور الجماعات البشرية وارتقائها.
- فالافراد في جغرافيا واحدة، ولهم لغة حافظة لذاكرتهم ولخلاصة تجاربهم، ارتقوا وصاروا قادرين على انتاج حاجاتهم الروحية" تجسدت في العبادات، والطقوس، وقد دلهم وعيهم ومعرفتهم انذاك للتعبد للطبيعة وظواهرها القاسية وابتداع الآلهة

المتعددة كالهة الخصب والجمال والغضب، ثم الانبياء والرسل والرسالات من السماء" وهكذا اكتسبت مسألة الالهة والقيم والعبادات دوراً محورياً في تشكل وعي الجماعة وعيشها وانتظامها كشرط لازم...

- وهم ذاتهم، ولهم تلك العناصر الجامعة، تعرضوا لعسف الطبيعة، ولعدوان الجماعات الاخرى التي تقدمتهم انتاجا، ووعيا وتلبية لحاجاتها المادية والروحية، فقاوموها متحدين ومتفاعلين، غلبوها او غلبتهم او اضطروها او اضطرتهم للتمثل في جماعة اكتسبت صفات السوابق عليها، او تشكيل وحدة متشاركة ومختطلة بينها، فصار لهم تاريخ مشترك، وعادات، وقيم، وعبادات وأنماط حياة، وثقافة " بنية حقوقية"... وهكذا كان للتاريخ المشترك والقيم والبنية الحقوقية الفوقية دوراً محورياً في تشكل الجماعات وارتقائها وتطورها...
- وفي الأصل، والدم، واللون، والعرق أيضاً سبب في تشكل الجماعة وتطورها وارتقائها، فالأفراد الأوائل كانوا في بيئة محدودة ووسائلهم قاصرة عن التفاعل بالإختلاط مع الجماعات الأخرى، والتطعيم، ولهذا سادت فكرة أن الدم، والعرق واللون من مميزات الجماعات ومن خاصيتها وأساس في تشكلها وهذا ليس ببعيد عن الواقع الذي كان وعاشته الجماعات البشرية الأولى...

على ما تقدم يمكن الجزم، أن ما قالته النظريات والأفكار في أسباب وأصول وشروط تشكل الجماعات الكبرى التي اتخذت صفة القوم ومن ثم تمثلت الأقوام في أمم، لم تأت من فراغ ولا هي مجرد وصفات ذهنية لمعالجة وقائع وتحقيق مصالح للغلبة بل لها في الواقع أصل جوهري...

بيد أن الإنسان، وهو يحقق حاجاته المادية والروحية، ويتفاعل مع الآخر، والجماعة مع الأخرى" التفاعل حبياً، تمثلياً، أو حربياً وإخضاعياً وبالقسر.." لم يقف على زمن بعينه وتحجر عنده، ولا تمترس بمنسوب واحد من الحضارة والكمال، إنما تشكلت الحياة البشرية وأنماطها ووحداتها الإجتماعية والجغرافية، وتطورت مع كل حقبة لتكون الأولى نقطة استناد وسببا للثانية وهكذا للثالثة حتى بلغت الإنسانية ما نحن عليه...

وما نحن عليه، وبعد آلاف السنين، أو مئات منها والبعض يقول بالملايين على بدء الخليقة، تطور الإنسان، في عقله، وفي ذهنه ومعالجاته، ومخزونه، وفي إنتاجه للسلع والحاجات المادية، وارتقى بحاجته الروحية، وطور من أدواته وطرائق عيشه، وأنماطها، ووسائطها، وغير في عناصر الطبيعة وسخرها، وفي العلاقات بين البشر والجماعات، ويتغير ويغير معه كل محيطه، وقيمه، وحاجاته، بما في ذلك ما يطال الأسباب والشروط الأولى والأولية لتشكل الجماعات وارتقائها، والمنطقي القول؛ ما كان سبباً محورياً في زمن وجغرافية، ربما تراجع وأصبح سبباً ثانوياً أو شاهداً، أو بصمة، أو كان عنصراً مؤسساً، فتقدمت أسباب كثيرة لتحتل مرتبة الصدارة والأولوية وباتت الأكثر حسماً وفاعلية... غير أن عوامل محورية لم ولن تتغير مهما تغيرت الحياة البشرية وشروطها وطرائقها ووسائطها وإبداعاتها. تكمن في التالي:

- الطبيعة البشرية والفطرة التي فطر عليها الإنسان بصفته كائناً اجتماعياً لا يقوى على الحياة إلا بالتفاعل والتشارك في إنتاج حاجاته المادية والروحية– يصير المتغير في الوسائط والوسائل والأدوات وليس في الأصل والفطرة والحاجات...
- الحاجة المادية بما هي إنتاج شروط بقاء الإنسان، أي ما يسمى اليوم بالعلاقات الإقتصادية، بتنوعها، وباختلاف تطوراتها وتشكيلاتها، فهذه كانت وتستمر العامل الحاسم في كون الإنسان إجتماعيا وينتمي لجماعة، ما دامت الحياة على وجه البسيطة، والمتغير فيها؛ هو آليات تحققها، ومستواها، وانماطها، وسلعها وقواعد إنتاجها وتوفرها وتوزيعها...

في المتغيرات الجوهرية، وجديد اسباب تشكل الهويات:

١- العالم اليوم مختلف جوهرياً عما كانه قبل نحو عقدين أو ثلاثة، وتطورت البشرية، ووسائطها، وقدراتها، وإبداعاتها ودور الرغبوية والإرادوية في اختيار وتقرير الهوية والإنتماء على نحو ثوري" فإنسان اليوم وعلاقته بالحياة، وبشخصه ورغباته وقدرته على تحقيقها يختلف نوعياً عما كانه في تواريخ سابقة "فقد شهدت السنوات الخمسين المنصرمة، تطورات وإبداعات هائلة وتكثفت فيها الإختراعات والإكتشافات وتغيرت الحاجات المادية والروحية وآليات وطرائق وشروط ووسائط التفاعل بين البشر افراداً وجماعات على نحو لم تشهده البشرية في عمرها المقدر بمئات الآف السنين أو بملايينها وهذه تخلق أسبابا وشروطاً مختلفة جوهرياً عن التي كانت بين عناصر امتلاك الهوية وتشكلها، وتشكل الجماعات البشرية" بينما كانت الطبيعة تفرض نفسها وقيمها كشرط لازم لإكتساب الهوية صارت اليوم الإرادة والرغبة الحرة"

- فالزمن أصبح زمن السرعة، والسرعة هي قول الفصل والحسم في الفناء اوالبقاء وفي الإرتقاء..
- والجغرافيا أصبحت رقعة بحجم قبضة اليد، وتحت العدسات الكاشفة" القرية الكونية"..ولا أثر يذكر للإنقطاعات الجغرافية وللطبوغرافية والمناخ في تعطيل التفاعل والإنفعالات الإنسانية والإجتماعية والإقتصادية بين الأفراد والجماعات...

– والجيو تواصلية، لجهة شبكات المصالح وعبورها من تحت وفوق الحدود الجغرافية والحدود الدولتية، أصبحت القوة المؤسسة والفاعلة للهويات الجديدة، ولآليات وأسباب انتظام الحياة البشرية وتشكلها وحاجاتها وطرائقها ولم تعد ذات الأسباب كالجغرافية المتصلة، واللغة، والعادات والتقاليد والأديان والعبادات...

– والثورة التواصلية ووسائطها، وصلت بالإنسانية الى ما يسمى اليوم الجيل الرابع للثورة التقنية البشرية وأصبحت الحياة الإنسانية في حقبة التاريخ المفرط، والأنفوسفير، أي باتت البشرية في عصر الذكاء الصناعي، والإندماج بين العالمين الواقعي والإفتراضي ولم تعد للعناصر التي كانت سبباً محورياً ذات القيمة والأثر في تشكل الجماعات وإمتلاك الهويات..

– وقد حقق البشر، في وعيهم ومعارفهم ووسائطهم التواصلية والتفاعلية، وإنتاجهم لحاجاتهم المادية، حقيقة أن المستقبل أصبح ممكن الإدراك، وأنه هو ما نصنعه اليوم لا ما نتوقعه ذهنياً، وصار للإرادة العاقلة وللرغبة وللجهود الواعية لتحقيق المصلحة" المادية والروحية" دوراً محورياً في تقرير الإنتماءات، وإمتلاك الهوية، فتراجعت العناصر السابقة لها وإن لم تفقد أثرها وقيمتها .

– وابتدع الإنسان لغات جامعة، وجديدة " لغات الكمبيوتر" وانتفت موجبات " الترجمة... ومهنتها إلى إنقراض" وتحل الوسائط المادية والإفتراضية غير الحسية " السحابة، والإنترنت، والهاتف الذكي وبرمجياته... كحافظ وكذاكرة للأمم والشعوب بدل ما كانته اللغة.." أو ما كانت عليه النقوش، والكتابات على الصخور، وورق البردى والجلود وصناعة الورق والطباعة... "

– وأصبحت شروط الحياة وتلبية الحاجات أكثر يسراً، وأقل تكلفة للجهد، وصار المنزل وحدة متكاملة يتأمن للإنسان فيه حاجته عبر إتصاله بالشبكات والبيع والشراء عبر الإنترنت، وتالياً حتى التفاعل المباشر والواقعي بين البشر لم يعد ضرورة حياتيه حاسمة...

في نموذج عياني واقعي يدلل على ماذكر ويكرسه قواعد حياة وتفكير، حقيقة تعريف الإجتماع البشري والمجتمعات في مقولة: **إننا نعيش معاً لأننا نؤمن بمستقبل واحد**...والجديد فيها أن الناس كانت تعيش معاً لأنها مضطرة وليس لها من سبيل، بينما ما بلغته البشرية وفر أسبابا، ليصير الإنسان أكثر تحرراً من قواعد وضوابط الطبيعة وعناصرها في تقرير عيشه ومكانه، فصارت الإرادة والرغبة والنظرة إلى المستقبل وتأمينه هي الحافز الحاسم في امتلاك الهوية وبوعي وبدافع المصلحة والمستقبل" نرى في بيتنا أن بعض الأخوة أو الأبناء لأنهم لم يؤمنوا بأن مستقبلهم معنا سافروا وحازوا على جنسيات وهويات أخرى وتغربوا .."

في تناقض ما بلغته الإنسانية مع واقع ما تعيشه، ومولدات الحروب والهويات الجديدة، والهويات التي يستوجب تحقيقها:

على رغم كل ما تقدم في توصيف جديد الحياة البشرية وقيمها وعلاقاتها والمتغيرات الجوهرية في أسباب وعناصر تشكل الجماعات الإنسانية وتحولاتها، بيد أن البشر يبقون بشراً، وكل تطور علمي، وفي الوسائط، والسلع، وما تسوقه وتحققه من قيم وثقافات تعتبر عناصر مادية أنتجها الإنسان لخيره وتيسير حياته، وحاجاته، أو لتعظيم ثروته وسطوته، ويبقى الإنتماء بما هو حاجة إنسانية قابضة على روح البشر وتستمر ذات أثر نوعي لم يجر نسفها بعد برغم كل التطورات الجارية في كل إتجاه...

وكأن الإنسانية تعيش حالة إنفصامية، فبينما الإنسان الفرد يلوذ بالسفر واكتساب هويات وجنسيات أخرى، تجده يشتد حنينه للجماعة الأصل، وللأرض والجغرافيا وللمناخ وللعناصر البدائية المشكلة للهويات...وتصير أكثر نصاعة في الجماعات والدول والأمم التي تشكلت واكتسبت صفات ما فوق القومية وبلغت مرحلة الأممية بل تفردت في محاولات فرض قيمها وأنماطها على الكرة الأرضية، وقد نجحت في الكثير من العناصر لا سيما" تعميم وتسويق الليبرالية الفردية والإقتصادية" فحالة الفصام، أكثر ما تتجسد اليوم واقعاً نجدها في أمريكا نفسها، وفي الإتحاد الأوروبي...

"دود الخل منه وفيه– وداويها بالتي كانت هي الداء" فالرأسمالية تخلق حفاري قبورها بيدها، وبإرداتها....

تلك مقاولات تتجلى اليوم في واقعنا، أالتي انشأت أمريكا، وطبعتها بطبائعها وأطلقت حقبة العلمانية والقومية تعود على نفسها، ويتهددها صعود اليمين المتطرف والعقائدي وتسييس الدين، والنزعات العنصرية، وتتهدد الإتحاد الأوروبي بالإنفراط وإنفجار الوحدات الوطنية ذاتها وتصعد الحركات الفاشية، وتستفز الأمم والأقوام والجماعات التي ألحقتها قسراً ولم تسهم في تمثلها طوعاً... والوليد غير الشرعي لأوروبا ورأسماليتها الهمجية المسماة ولايات متحدة أمريكية تنقلب على قيمها، وتنتج رئيسا، وإدارة تجعل من مهمة تدمير العولمة" أمركة العالم" والإنغلاق القومي، وتصعيد التناقضات العنصرية وتفجير التشققات العامودية في المجتمع الأمريكي نفسه، مهمتها اليومية والمستقبلية... ويخرج ترامب مفاخراً ويردد أنا قومي أمريكي وأفتخر، ويرفع شعارات الأمة وأمريكا أولاً، والإنغلاق، وينسحب من التشكيلات ما فوق القومية، ويغير في أحوالها، ويفرض حروباً اقتصادية عالمية ويهدد البنيان برمته تحت نزعة الهوية القومية وأحقية البيض الأنكلو ساكسون...

انه غدر التاريخ وثأريته التي لم تقوى كل الاختراعات والابداعات والتقدم التقاني والعلمي من قتل نزعته الثارية...

هكذا تعود المسألة القومية ومسائل الأمة والتشكيلات الجمعية، والجماعات وهوياتها مؤسساً قابضاً على الحياة البشرية، لتعيد صياغتها برغم كل ما تحقق للبشرية من رقي وعصرنة وإختراعات ثورية..

العرب امة كاملة ينقصها الكمال بوحدتها وبدولتها القومية وقد دنت فرصتها:

الشواهد التاريخية والوقائع الجارية، تشهد أن العرب أمة كاملة المواصفات، وبحسب كل رأي من التصنيفات العتيقة، والمستجدة في ضبط وتحديد العناصر التي قيل أنها أسباب في تشكل القوميات والأمم، ينقصها فقط أن تقيم دولتها الوطنية، دولة الأمة، وقدم المؤشر العربي لثلاث إصدارات حقائق حاكمة في إستطلاعاته ولم تنقص عن نسبة ٧٦٪ ممن قالوا أنهم ينتمون إلى الأمة العربية في طول البلاد وعرضها، وعلى الرغم مما تعيشه المنطقة العربية من حروب ومحاولات تصنيع هويات، واستحضار الهويات ما قبل التاريخ، وتشكل حروف اللغة العربية المكتوبة ثاني لغة عالمية وسادس لغات العالم المحكية، وللعرب إله واحدة وكتب واحدة، وجغرافية واحدة ومتكاملة لم ينقطع تواصل بشرها قط، وتاريخ وثقافة وعادات وتقاليد وقيم مشتركة، وآمال مشتركة... **من الزواية النظرية**، وبحسب المناهج العلمية المتفقة على تحديد سمات وعناصر الأمة، يحوز العرب عليها كاملة. بيد أن التاريخ والتخلف، والتآمر منعهم من تحقيق سيادتهم الوطنية وتحقيق ذاتهم الجمعية، ولأنهم منعوا قسراً ولهم صفات وشروط الأمة شغلوا العالم بقضاياهم ونضالاتهم ومقاومتهم القرن المنصرم بكامله والعقدين من القرن الحالي ولم تسقط الراية، فمنذ وعد بلفور، وتفكيك

الإمبراطورية العثمانية التي حكمت طويلا واتصفت بأنها أوسع إمبراطوريات القرون التي تمكنت بكتاب العرب ودينهم وبرجالاتهم، وعندما انحسرت عنهم وانقلب العرب عليها سقطت وتحولت إلى قزم صغير" تركيا التي جرى تصميمها عام ١٩٢٣".
وفي نظرة راجعة لقراءة الأحداث الكبرى في التاريخ، ولا سيما توفر شروط تحقيق الأمم لمكانتها وشخصيتها يمكن لحظ المعطيات الاتية:

- شكلت حقبة المقاومة منصة إستناد لكل أمة لانتزاع تحررها وتحقيق وحدتها فحقبة المقاومة ومنع الآخرين من الإستيلاء والإحتلال والاستيطان سابقة على حقبة النهوض والبناء" والعرب أتقنوا المقاومة وقاوموا لقرن وعقدين وما زالوا يحققون الإنتصارات".
- لم تتمكن الأمم التي كانت مغلوبة على أمرها من تحقيق ذاتها القومية إلا في بيئات دولية وإقليمية مناسبة، وغالبها إنتزع حقوقه على تخوم صراع الإمبراطوريات، وبنتائج الحروب القارية أو القومية، فالأمة الروسية إستعادت وحققت مكانتها في ثورتها البلشفية وحربها الأهلية ومن نتائج الحرب العالمية الأولى، وإستقلت الصين بناتج تحولات الحرب العالمية الثانية وإنهيار منظومات النظم العالمية والإقليمية والفيتنامية والإيرانية نجحت ثوراتها وحققت سيادتها وإستقلالها على مفاصل الحرب الباردة، وذات الشيء ينطبق على أقوام وجماعات ما كان يسمى منظومة الإتحاد السوفيتي والدول الإشتراكية، وكما أسلفنا فالمسألة القومية ومسائل الأمة لم تنضج في أوروبا إلا بعد حروب دينية دامت مئة وثلاثين سنة.
- فالحربان العالميتان السابقتان جرتا في جغرافيا غير جغرافيا العرب، ولم يتشكلوا عناصر فاعلة فيها، فخرجوا من حصة القوى المنتصرة، في الأولى من حصة أوروبا التي تقاسمتهم وقسمت جغرافيتهم أنشأت الدول والأمم "المصنعة" وزرعت الغدة السرطانية " إسرائيل" وفي الثانية خرجوا من نصيب الكتلتين العالميتين اللتين ورثتا أوروبا المحترية والمهزومة..
- **فارق الأزمنة الجارية**؛ إن الحروب كلها، والحرب العالمية العظمى جارية لأكثر من نصف قرن معهم وفي جغرافيتهم، ويخرج منها الغرب مجتمعاً تحت راية أمريكا مهزوما، وقد طالت حروبهم وخاضوها منفردين بلا إسناد من الأمم الأخرى، ونجحوا في تعطيل الهيمنة الأمريكية المتفردة على العالم وأسقطوا كل جهودها وأدواتها وقوتها وهي متعجرفة في هيمنتها، بل ونجحوا باستنزاف وإسقاط مشاريعها وكشفوا جميع أدواتها وأحلافها، فمنذ عام ١٩٧٣ حرب تشرين لم يشهد العالم أو أي من قاراته حرباً كبرى إلا في إقليم العرب وفي بعدهم الإقليمي، وجرت كبرياتها في الجغرافيا الموصوفة بأنها المثلث الذهبي لصناعة تاريخ ومستقبل الإنسانية، بزواياه الذهبية الثلاث: بغداد– بيروت– القدس" كتاب ساحل الشام والصراعات الدولية ٢٤٠٠ق.م ٢٠٠٤م– عبد المجيد عبد الملك بيروت– بيسان" ودوماً قاعدة المثلث كانت بلاد الشام والرافدين فحرب تشرين، والغزو الصهيوني لبيروت، وحروب غزة وغزو بغداد، وافغانستان وقعت في هذه الجغرافيا ومع العرب أو بإسناد وإحتضان منهم ...

البيئة الوافرة والفرصة الواعدة:

هكذا تقول لنا المعطيات قاطعة أن زمن العرب قد دنا، وأن فرصتهم الذهبية قد باتت حافزة، وتتوفر لهم كل الشروط والمعطيات والأسباب كي ينهضوا بمشروعهم القومي، وأن ينكبوا على عصرنته، وتطويره ليتقاطع مع قيم ومنظومات ووسائط العصر...
فالعناصر الأولية لتشكل الأمم موفورة بهم بصورة كاملة.. وأن الزمن وتوازن القوى والحروب التي جرت في غير جغرافيتهم وبلا أي فاعلية لهم، ذهبت، وهم اليوم ومنذ مئة وعشرين سنة متصلة يقاومون، وتجري الحروب الكبرى منذ نصف قرن معهم وفي جغرافيته، وبإزاء إستهدافهم في جغرافيتهم وثرواتهم وقيمهم وأديانهم وكيانهم وصاروا هم البيئة الفاصلة بين عصرين، عصر الأمركة والعدوانية والإحتلالات وعصر تحرر الأمم وإشاء أمميتها الواعية العاقلة بتحرير كل أمة على حدا...

وبناتج حروبهم مع الغرب الإمبريالية وأدواته وقواعده وتحالفاته وقد أفلحوا بإلحاق الهزيمة بها مجتمعة ووحدهم بلا تضامن أو مسانده من الأمم والقارات التي وقعت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي تحت القبضة الأمريكية أو تبعتها بالولاء وبالمصالح الإقتصادية والتكاملية...

واليوم بفاعلية الجاري في فلسطين وتحولاتها وتعاظم قوة ودور المقاومة وقدراتها، وإلزام الكيان الصهيوني أن يحتمي بالجدر ويزداد افتقاده لكل عناصر القوة...

ومع صعود المسألة القومية في أوروبا وأمريكا العدوانيتين، ودخول اقتصادياتهما الليبرالية والرأسمالية في المرحلة الأكثر توحشاً، أزمة تكوينيه، وأزمة نظم وجغرافيا وقيم، وبعد أن إنتهت أسباب تمكن الغرب وهيمنته ونموذجه وصعود آسيا، وإرتقائها وتمكن الشعوب من وسائط ووسائل السيطرة والسطوة، وإشاعتها بفعل التطورات التقنية، وسقوط إحتكار الغرب للتقانة والإبداع والسيطرة الإقتصادية والثقافية، وتحول موازين القوى إلى آسيا، والدور المحوري الذي لعبته المقاومة العربية المديدة في انهاك الغرب واستنزافه وتازيمه واسقاطه، ودفعه للتحول والتراجع والانسحابية، ما وفر الأسباب المادية لعودة روسيا من المنصة العربية السورية وتشكلها قوة عالمية مقررة، ودفع الصين للخروج على قيمها وجدارها العظيم طلباً للمشاركة في النصر العربي السوري، وبكون كل من روسيا والصين القوتين العالميتين الصاعدتين ليستا عدوانيتين ولا احتلاليتين ولا إستعماريتين تتوفر أسباب إضافية للعرب ليمتلكوا مشروع النهوض والقيام بعد إتمام حقبة المقاومة....

وبإنفجار الجغرافية القاصرة وسقوط نظمها المصنعة، وسقوط مشروعات الغرب الإمبريالي بتفتيت المفتت وتقسيم المقسم أو إدامة الفوضى، وإنشاء دويلات صنيعية قاصرة جهوية أو دينية أو طائفية وسقوط جهود ومخططات إستنزاف الأمة بحروب الفتن الدينية والطائفية كما هو جار في سورية " قاعدة العروبة وروحها الوثابة وقلبها النابض"..

ومع ظهور كل الأدلة والمؤشرات على تفكك النظام الإقليمي وقواه أسوة بتفكك نظام العالم الآحادي ودخول الإقليم والعرب حقبة إعادة تشكيل الجغرافية والنظم....تصير فرصة العرب ذهبية، غير مسبوقة، ومن صنعهم وقد توفرت أسبابها بدمائهم وتضحياتهم وصمودهم ومقاومتهم، وموسومة بانتصارات أمة المقاومة برغم خيانة نظم الإستعراب المأزومة...

من ينهض بالأمة؟ كيف لها أن تمتلك مشروعها العصري؟ وعلى أية قيم وقواعد ناظمة متساوقة مع قيم ومنظومات العصر وثقافته؟ هذه اسئلة برسم من يتقدم لإتمام الإجابة العاقلة والمنهجية عليها وسنقوم بما يتوجب علينا كلما تسنت لنا الفرصة والمنابر...